﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

[البقرة: 124]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وَجْهُ اتِّصَالِ هذه الآية بما قَبْلَهَا أَنَّ الآيات السّابقة تضمّنت الاحْتِجَاجَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَلَفِهِم الصَّالِحِ، وَهَذه الآية تضمّنت الاحْتِجَاجَ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَأَمْثَالِهِمْ بِسَلَفِهِم الصَّالِحِ، فَإِنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ عليهما السلام، وَيَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمَا بَنَيَا لَهُمُ الْكَعْبَةَ مَعْبَدَهُمُ الْأَكْبَرَ، وَكَانُوا فِي عَهْدِ التَّنْزِيلِ قَدِ اخْتَلَطُوا بِالْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ الَّتِي تَعْرِفُ لَهُمْ هَذَا النَّسَبَ[1] وأنّهم وإن كانوا من نَسْل إبراهيم إلّا أنّ ذلك لا يشفع لهم ما داموا ظالمين، كما تدعوهم هذه الآية إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام الذي ابتلاه الله تعالى بكلمات فأتمّها ونجح في الامتحان، وهم مَدْعُوُّون أن يُفيقوا من سُباتهم ويهتدوا بهدي أبيهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وزنه افتعل، المجرَّد منه الفعلُ (بلى يَبْلي) مِنَ الابتلاء، وجذره اللغوي من (بلي)، وأصل معناه: من "بلي الإنسان وابتلي، وهذا من الامتحان، وهو الاختبار"[2].

ويُقالُ: "أبلاهُ السّفرُ، وبَلَوْتُهُ اختبرتُهُ، كأنّي أخلقتُهُ من كثرة اختباري له ... وسُمّي الغمُّ بلاءً، من حيثُ إنّهُ يبلي الجسْم"[3]، وهُو الاختبارُ والامتحانُ والتّمحيصُ، و"البلاء يكون حسنًا، ويكون سيِّئًا، وأصله المحنة، والله تعالى يبتلي عبده بالصُّنع الجميل؛ ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها؛ ليمتحن صبره"[4].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/372.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلوي).
(3) الراغب، المفردات، مادة (بلو).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (بلو).

و"ابتلاه اللّه: اختبره، كأنما اختبر صبره وتحمُّلَه ... ويقال أيضًا: بَلَوْته: امتحنته، ومن هذا البلاء: الاختبار والمحنة والغمّ"[1]، "والابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة؛ والبلاء: الاختبار"[2].

2) ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: اسم عَلَم أعجميٍّ لخليل الرحمن عليه السلام، و"هو الجدُّ الحادي والثلاثون لنبينا رسول اللّه ﷺ"[3]، "وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِخَ بْنِ نَاخُورَ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ بِالسُّوسِ مِنْ أَرْضِ الْأَهْوَازِ، وَقِيلَ: بَابِلَ ... وَقِيلَ: حَرَّانَ، وَكَانَ أَبُوهُ نَقَلَهُ إِلَى أَرْضِ بَابِلَ أَرْضِ نُمْرُودَ"[4].

وهو ممنوع من الصَّرْف، وفيه عدَّة لغات، منها: إبراهيم وإبراهام، ومعناه في لغة الكلدانيِّين: (أب رحيم) أو (أب راحم)، وقيل: إنَّ معناه: أبو أمم كثيرة[5].

3) ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾: اسم مجموع، جمع مؤنَّث، مفرده: (كلمة)، وجذره اللغوي (كلم)، وأصل الكاف واللام والميم: "يدلُّ على نطق مفهم ... تقول: كلّمته أكلّمه تكليمًا، وهو كليمي إذا كلَّمكَ، أو كلَّمتَه، ثمّ يتّسعون، فيسمّون اللّفظة الواحدة المفهمة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة"[6].

والكلام "يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، وعند النحويين يقع على الجزء منه؛ اسمًا كان، أو فعلاً، أو أداة، وعند كثير من المتكلّمين لا يقع إلّا على الجملة المركّبة المفيدة"[7].

والمعنى المراد في الآية: أنَّ "الكلمات: جمع كلمة، ويرجع تحقيقها إلى كلام الباري تعالى، لكنَّه عبر عنها عن الوظائف التي كلَّفها إبراهيم عليه السلام"[8].

4) ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: فعلٌ ماضٍ من (أتمّ يتمّ)، جذره اللغوي (تمم) وأصل معناه: هو "دليل

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلو بلى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/144.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(7) الراغب، المفردات: (كلم).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/350.

الكمال، يقال: تمَّ الشيء، إذا كمل، وأتممته أنا"[1].

و"تَمَام الشيء: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والناقص: ما يحتاج إلى شيء خارج عنه"[2].

ومعنى أتمَّهن في الآية: "فأدَّاهن، عَمِل بهنَّ فأتمَّهن، فتَمَام الكلمات في هذه الآيات، يعني: كمالَها بتصديقها، أي: تحقيق معناها حيث استوفت مضمونها كاملًا بنفاذها، والعامَّة تَعُدُّ ما لم ينفَّذ من الكلام فارغًا"[3].

5) ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، أصل حروفه (قول)، حصل فيه إعلال؛ إذ قلبت الواو ألفًا، والأصل في معنى حروفه: "القولُ منَ النّطقِ، يقالُ: قالَ يقولُ قولًا، والمقولُ اللِّسانُ، ورجلٌ قُوَلَةٌ وقوَّالٌ: كثيرُ القولِ"[4]، ويطلق القول على الكلام أيضًا[5]، ومِن أظهَرِ استعمالات القول "أن يكون للمركّب من الحروف المبرَزِ بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[6]، وهناك استعمالات أخرى للقول كالتصوّر النّفسي والاعتقاد والدلالة على شيء، والعناية الصادقة بالشيء، وكذلك الحدُّ والإلهام[7].

ومعنى القول في الآية معروف إلَّا أنَّ تَكراره يأتي "على طريقة المقاولة؛ لأنّ هذا القول مجاوبة لما دلّ عليه قوله: ابتلى"[8].

6) ﴿جَاعِلُكَ﴾: اسم فاعل للفعل جعل، وجذره اللغوي (جعل): وهو يأتي على عدة أنحاء، منه اللازم، ومنه المتعدِّي لواحد واثنين، وجعل في الآية من أفعال التحويل والتصيير يتعدَّى لاثنين، ولجعل كلمات "غير منقاسة، لا يشبه بعضها بعضًا.

و"وجعلت الشيء صنعته، قال الخليل: إلَّا أنَّ جعل أعمّ، تقول: جعل يقول، ولا تقول: صنع يقول"[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تمّ).
(2) الراغب، المفردات: (تمّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تمم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (قول).
(6) الراغب، المفردات: (قول).
(7) الراغب، المفردات: (قول).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جعل).

وهو "لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها، وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجه ... والرابع: في تصيير الشيء على حالة دون حالة"[1] وهو المراد في الآية، وهو التصيير بالقول، "ومعنى (جعل) وما تَصَرَّفَ منها في القرآن يكون للتحويل والتهيئة على وضع، أو للخلق؛ وهو تحويل للهيئة بإنشاء هيئة جديدة"[2].

ومعنى جاعلك في الآية: "إنّي مصيّرك تؤمُّ من بعدك من أهل الإيمان بي وبرسلي، تتقدَّمهم أنت، ويتّبعون هديك، ويستنّون بسنّتك"[3].

7) ﴿لِلنَّاسِ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغويُّ (نَوَسَ)، وله "أصل يدلّ على اضطراب وتذبذب، وناسَ الشيء: تذبذب"[4]، وذُكر له أصلان آخران هما: " أناس، واشتقاقه من الإنس للإيناس ... الثالث أنّ أصله نسي من النسيان"[5].

"ولفظُ النّاس قد يُذكّر، ويُراد به الفُضلاء، دون مَن يتناولُه اسمُ النّاس تجوُّزًا، وذلك إذا عدَّ معنى الإنسانيّة، وهو وُجودُ العقل والذّكر، وسائرِ الأخْلاقِ الحميدة"[6].

والمعنى في الآية: "فالمراد من الناس حينئذ: أمَّته الذين اتَّبعوه"[7].

8) ﴿إِمَامًا﴾: اسم على وزن فِعَال، جذره اللغويُّ (أمم)، والأصل في معناه: "فأصلٌ واحدٌ، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين، وهذه الأربعة متقاربة ... والإمام: كلُّ من اقتدي به، وقُدِّم في الأمور، والنبي ﷺ إمام الأئمة"[8].

"ويقال لكلِّ ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أمّ، قال الخليل: كلّ شيء ضمّ إليه سائر ما يليه يسمّى: أمًّا"[9] ومنه يشتق لفظ الإمام، ومعناه

(1) الراغب، المفردات: (جعل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/18.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوس).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (نوس).
(6) الراغب، المفردات: (نوس).
(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/374.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمّ).
(9) الراغب، المفردات: (أمَّ).

"المؤتمّ به؛ إنسانًا كان؛ يقتدى بقوله أو فعله، أو كتابًا، أو غير ذلك؛ محقًّا كان أو مبطلاً، وجمعه: أئمَّة"[1].

"والإمام: المتَّبع في أقواله وأفعاله وأحواله، ومنه قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ولذلك ادّعاه كلّ أحدٍ، ولم يصدُق في ذلك إلَّا المسلمون"[2].

ومعنى الإمام في الآية: "يأتمّون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون"[3].

9) ﴿ذُرِّيَّتِي﴾: اسم مؤنث، جذره اللغوي (ذرر)، ولـ"الذّال والرّاء المشدّدة أصل واحد، يدلّ على لطافةٍ وانتشار، ومن ذلك الذّرّ: صغار النمل، الواحدة ذرة"[4]، ومن جعلها من هذا الباب أعني "من الذّرّ؛ لأنّ الله استخرج الذرية من ظهر آدم كالذرّ حين أشهدهم على أنفسهم"[5].

"والذُّرِّيَّة أصلها: الصّغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، ويستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع"[6].

وفي المعجم الاشتقاقيّ: "الذُّرِّيَّة، فقد جَرَيتُ على أنَّها من (ذرأ)، وإن كانت تتأتى من هذا التركيب، ويقال: "ذرّ الله الخلق في الأرض: نَشَرهم انتشار مسترسل مع دقة، وذرّيَّة الرجل: وَلَدُه"[7].

ومعناها في الآية: "نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقّة: إمَّا من الذرِّ اسمًا، وهو صغار النمل، وإمَّا من الذرّ مصدرًا بمعنى التفريق، وإمَّا من الذّري والذّرو (بالياء والواو)، وهو مصدر ذرت الريح؛ إذا: سفت، وإمّا من الذرء بالهمز وهو الخلق"[8].

10) ﴿يَنَالُ﴾: فعل مضارع، الماضي منه نال، وجذره اللغوي (نيل) و(نول)، وله أصل

(1) الراغب، المفردات: (أمَّ).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (أمم).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/601.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (ذرا).
(6) الراغب، المفردات: (ذرو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرو- ذرى).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/705.

"يدلُّ على إعطاء، ونوَّلته: أعطيته، والنَّوال: العطاء، ونلته نولًا مثل أنلته، وقولك: ما نولك أن تفعل كذا، فمنه أيضًا، أي: ليس ينبغي أن يكون ما تعطيناه من نوالك هذا"[1].

"وحقيقة النَّوال: ما يناله الإنسان من الصِّلة، وتحقيقه ليس ذلك مما تنال منه مرادًا"[2].

ومعنى لا ينال: "أي: لا يصيب عهدي من كان ظالمًا"[3] ولا يشمله.

11) ﴿عَهۡدِي﴾: اسم ثلاثي، والجذر اللغوي له (عهد)، وأصل معناه: "الاحتفاظ بالشيء وإحداث العهد به، والذي ذكره من الاحتفاظ هو المعنى الذي يرجع إليه فروع الباب"[4].

وهو "حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمِّي الموثق الذي يلزم مراعاته عَهْداً"[5]، و"المراد بالعهد التولية والتمكين من عَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ الخلافة، والمعنى: لا أولي ولاية شرعية من كان ظالمًا"[6].

والعهد في الآية بمعنى: الإمامة[7]، قال في المنار: "وَلَكِنَّ عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ؛ لِأَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ"[8].

12) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جمع مذكّر سالم لاسم الفاعل، جذره اللغويُّ (ظلم)، ومعناه "وضْعُ الشَّيءِ غيرَ موضعهِ تعدّيًا"[9] فهو خلاف الحقِّ، فمن تعدَّى من الحقِّ إلى الباطل؛ فقد وضع الشيءَ في غير موضعه؛ وبذلك يسمَّى ظالماً.

"وَالظُّلْمُ عند أهل اللُّغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختصِّ به،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نول).
(2) الراغب، المفردات: (نيل).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (عهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهد).
(5) الراغب، المفردات: (عهد).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (عهد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عهد).
(8) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/375.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظَلَمْتُ السِّقَاءَ؛ إذا تناولته في غير وقته"[1].

وفي معناه المحوري: "حجبُ ما ينبغي، أو ما يُسْتَحقُّ، أي: منعه أو انتقاصه، كمَنْع الضوء في حالة الظُّلمة، وكمنع المطر عن الأرض المظلومة"[2].

"والمرادُ بالظالمين ابتداءً المشركون، أي: الذين ظَلَموا أنفسهم؛ إذ أشركوا بالله، والظُّلمُ يشمل أيضًا عَمَلَ المعاصي والكبائر"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكر أيها النبيُّ ﷺ حين اختبر الله إبراهيم عليه السلام بما شرعَ له من تكاليفَ من الأوامر والنواهي، فجاء بها على أحسن صورة وأكمل أداء، قال الله له: إني جاعلك قدوة للناس، فسأل إبراهيمُ الخيرَ لذريَّته بقوله: ربِّ اجعل بعضَ نَسْلي أئمَّةً فضلًا منك، فأجابه الله سبحانه - بطريق الإيجاز والإشارة - بأنَّه لا تحصل للظالمين الإمامةُ في الدِّين؛ فمن كان موصوفاً بالظُّلم فليس مستحقًّا لهذا التكليف، لأنَّ الظُّلم مانع من الإمامة.

في الآيـة تنفير من الظُّلم؛ كي يتحاماه الناس، ولا يقعوا فيه

وذكر الله هنا الأساسَ الذي بُنيَ عليه الإسلام والنَّسب الذي يمتُّ به، ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب، وهو ملَّةُ إبراهيم ونسبُه، فلا فضل إذًا لليهود على العرب بأنّهم يمتُّون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم، إذ النَّسب واحد والملَّة واحدة[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عـطـفُ الآيـةِ عـلى الآيـة مع تباعدِهما يورث ترابطًا بين آي القرآنِ

بلاغةُ عطفِ الجمل المتباعِدة:

ذهب ابن عاشور إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ معطوفٌ على ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] للاشتراك بينهما في بعض الأمور[5]:

(1) الراغب، المفردات: (ظلم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/208، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص19.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/700.

- فآدم أبو البشر، وإبراهيم أبو الأنبياء.
- اتّفاق الأسلوب القرآني في بدء قصّة كلّ منهما، ففي قصة آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: 30] ومع إبراهيم: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، فالمُفتتح فيهما متقارب.
- استخدام فعل الجعل في كلّ منهما، فقال في حقّ آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وقال في حقّ إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.
- التعبير بالكلمات في كلّ منهما، فمع آدم قال ربّنا: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 37]، ومع إبراهيم: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾.
- الاشتراك في الأُبوَّة والبُنُوَّة، فآدم أبو البشريَّة، وإبراهيم ابن آدم؛ فجعل الخلافة مع أبي البشريَّة، والإمامة مع ابنه، والخلافة أعمّ، والإمامة أخصّ.
- اشتراكهما في تمهيد القرآن قبل الحديث عن كلّ منهما، فقبل الحديث عن آدم تكلَّم على خلق الكون وما فيه من أقوات في السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 21-22]، وقبل الحديث عن إبراهيم تحدّث عن نسخ تحويل القبلة في قوله تعالى: ﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106] الآية.

التمهيدُ للحجِّ بذكرِ إبراهيم:

هذه الآية ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جاءت بمنزلة التَّمهيد والتَّقديم للحجّ، وموضعُه ومكانه البيتُ الحرام، بما له من معالم وشعائر؛ لذا بدأ القرآن حديثه عن الشخص الذي رفع قواعد البيت، وطهَّره، وطبَّق مناسكه.

سرُّ التعبيرِ بفعلِ (الابتلاء):

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ خطاب للرسول ﷺ ولأمته على تقدير: "أيْ: واذكُر لهم وقت ابتلاء إبراهيم عليه السلام؛ ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الدَّاعية إلى التوحيد"[1]، فإنّ "إِذْ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، أَيِ: اذْكُرْ"[2]، والتّعبير بالابتلاء، وهو بمعنى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/249-250.
(2) العكبري، التبيان: 1/111.

غـايـةُ الابـتـلاءِ رفعُ الدَّرجاتِ

الاختبار الواقع على إبراهيم [1] عليه السلام، فيه إشارة إلى أنّه امتحان في الخير والشرِّ، "يُقال: أبلاه، وبلاه في الخير والشرّ ... وقيل: الأكثر في الخير: أبليته، وفي الشرّ: بلوته"[2]، وقد كان هذا الابتلاء في "تسليم بدنه للنَّيران، وولده للقربان، وطعامه للضِّيفان[3]، فهذه ابتلاءات في الخير والشرّ؛ لعظم منزلة خليل الرحمن.

معنى الابتلاءِ في حقِّه تعالى

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ عبّر الحقّ سبحانه وتعالى بفعل الابتلاء، وهو "افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا: للمبالغة، والبلاء: الاختبار"[4]، وهو تكليفٌ من باب التَّوسُّع والمجاز؛ لأنّ الابتلاءَ "يكون تكليفُه متضمَّنًا انتظار فعله أو تركه؛ فيلزمه الاختبار، فهو مجاز على مجاز"[5]، وليس على الحقيقة؛ لأنّ الابتلاء، لا يجوز في حقّه تعالى؛ "لأنّه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد"[6].

وجه تخصيصِ ذكرِ إبراهيمَ بمقامِ الابتلاءِ:

اجـتـمـاعُ الـنَّـاسِ على إبراهيم، تمهيدٌ لإجماعِهم على محمَّدٍ صلَّى الله عليهما وسلم

خَصّ التعبير القرآني إبراهيم بالذِّكر؛ لأنّ الله ﷻ لـمَّا فصَّل في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل والمشركين، وبيَّن أنّهم قابلوها بالكفران والعناد، شرع هنا في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنّهم معترفون بفضله، وأنّهم من أولاده، ومن سُكَّان حرمه ومن خُدَّام بيته.

وفي قصته أمور توجب الاعتراف بنبوَّة سيدنا محمّد ﷺ، والانقياد لشرعه، منها:

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/154.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/306.
(3) الأنجري، البحر المديد: 1/162.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/37.

- أنّه أُمر ببعض التكاليف، فوفَّى بها، فنال منصب الاقتداء به؛ فعُلم من هذا أنّ الخير لا يحصل إلّا بالانقياد لحكم الله والتزام تكاليفه، وترك التمرُّد والعناد.
- أنّه طلب الإمامة لذرِّيَّته، فقيل له: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فعُلم من ذلك أنّ الظلم مانعٌ لحصول الإمامة.
- أنّ القِبلة لـمَّا حُوِّلت إلى الكعبة شقّ ذلك على اليهود، فأُريد إزالة غيظهم بأن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي اعترفتم بتعظيمه والاقتداء به.
- أنّه دعا بإرسال نبيٍّ من ذرِّيَّته، وهو محمَّد ﷺ؛ كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 129]، فيجب على من يعترف بإبراهيم أن يعترف بنبوَّة محمَّد ﷺ.

سرُّ إيثارِ عنوان الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّة:

التَّربيةُ الرَّبانيَّةُ مقدِّمةُ السَّعادةِ السَّرمديَّة

ذُكر عنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ دون الألوهيَّة، لأنَّ لفظ الربّ أنسبُ بالمقام؛ لأنّه "الناظر في مصالحه ومربيه ومدبر أحواله؛ ليكون ذلك أطمع له، فلذلك أتى بصفة الربّ"[1]، ولأنَّ معناه "المربِّي الذي يأخذ من يربِّيه بأساليب تؤهِّله إلى الكمال المطلوب منه"[2]، وليُعلم النَّاس قدرته على الإمامةِ فيخضعون له، ويُقرُّون بها.

تقديمُ المفعولِ على الفاعلِ للاهتمامِ:

المفعولُ في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، "مقدَّمٌ على الفاعلِ، ووجب تقديمُه هاهنا؛ لأنّ تأخيرَه يوجبُ إضمارًا قبل الذِّكر"[3]، فلفظ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السلام مفعولٌ، وقد قُدِّم على الفاعل، وتقديمه – وإن كان لسبب متعلِّق بالصَّنعة النحويَّة – فيه معنى الاهتمام، "إذ كون الربّ مبتليًا معلوم، فإنّما يهتم السامع بمن ابْتُلِيَ"[4]، فإنّ تعريفَ السَّامع بالمُبتلى فيه تنبيهٌ على أهميَّة الحدثِ الذي سيُذكر، والعرب تقدّم ما هم ببيانه أعنَى.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/564.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/570.
(3) الباقولي، إعراب القرآن: 2/676.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/205.

دلالةُ إضافةِ الهاءِ إلى الربِّ:

تشريفُ إبراهيمَ وتكريمُه بإضافتِه إلى ربِّه

في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ هنا أضاف الضمير الهاء العائد على إبراهيم إلى لفظة (الربّ)؛ قصدًا إلى "تشريف إبراهيم بإضافة اسم ربّ إلى اسمه"[1]، ولو قال: (وإذ ابتلى الله إبراهيم)؛ لفات مقصودان: الأول: تشريف إبراهيم، والثاني: تقديمه، فإنّه قدّم إبراهيم كي لا يعود الضمير على متأخِّر لفظًا ورتبةً فضلاً عن الاهتمام به؛ كونه المبتلى كما تبيَّن في الفقرة السابقة.

توجيهُ قراءةِ ابنِ عامرٍ ﴿إِبۡرَٰهَـٰمَ﴾:

إبراهيم: اسم علم غير منصرف؛ للعجمة والعلمية، فهو "اسم علم أعجميّ، قيل: ومعناه بالسريانية قبل النقل إلى العلميَّة: أب رحيم"[2]، وقرأ الجمهور ﴿إِبۡرَٰهَـٰمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، فيما قرأ ابن عامر وحده: ﴿إِبۡرَٰهَـٰمَ﴾[3]، وفسّر على أنّه (أب راحم)، والفرق بينهما في العربيَّة، كالفرق بين اسم الفاعل (راحم) ومبالغته (رحيم)، "قال السهيليّ: وكثيرًا ما يقع الاتّفاق بين السُّرياني والعربي"[4]؛ فتكون قراءة ابن عامر دالّة على هذا المعنى، وهذا من مُلَحِ العلم لا من أُسِّه وأساسه.

تطرُّقُ احتمالِ دلالةِ ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ أن تكون على ظاهرِها أو مآلها:

الألفاظُ لا تُرادُ لذاتِها، بل لأثرِها وتأثيرِها

في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ بيّن الحقّ تبارك وتعالى طريقة الابتلاء، وهي الكلمات؛ "إذ الكلمة لفظ يدلّ على معنى، والمراد بها هنا الجمل، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: 100]"[5]، فهي تحتمل هذا المعنى على ظاهرها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/702.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/596.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 113.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 1/160.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.

ويجوز أن تكون الكلمات "ليست هي ألفاظها وكلماتها وحروفها، إنّما المراد بالكلمات المدلولات والمطلوبات التي تتضمَّنها من أوامر ونواهٍ، ووقائع"[1]، وآية ذلك أنّه تعالى قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ أي: "فأدَّاهن كملاً، وقام بهنّ حقّ القيام"[2].

والأمران محتملان، وإذا كانت الكلمات هي الحروف والعبارات والجمل مما اعتيد عليها؛ فإنّ الرأي الثاني على اعتبارها أفعالاً، فهو واقع أيضًا فيما يسمَّى اليوم بنظريَّة الأفعال الكلامية التي يرى أصحابها أنّ الكلام يطلق لإنجاز الأفعال، وقد عبّروا في بعض مصطلحاتها بـ (كيف تفعل الأشياء بالكلمات)[3]، والراجح هو الاحتمال الثاني، ويؤيِّد ذلك ما ذكره الفخر الرازيّ في تفسير الكلمات، أي: "بكلمات كلّفه الله بهنَّ، وهي أوامره ونواهيه، فكأنّه تعالى قال: وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات مما شاء كلّفه بالأمر بها، والوجه الثاني: بكلمات تكون من إبراهيم يكلّم بها قومه، أي: يبلِّغهم إيَّاها"[4].

سرُّ التعبيرِ بجمعِ القلّةِ في ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾:

الإشارةُ إلى يُسرِ التَّكاليف لطفٌ ربـانيٌّ، ومِهـادٌ تشريعيّ

شرْعُ الله قائم على التيسير في تكليف عباده، فلم يشقّ عليهم، وجعل التكليف في طاقتهم، يؤكد ذلك أنّه في ابتلائه إبراهيم عليه السلام، اختار التعبير بكلمات، وهي جمع قلّة، دون أن يقول: بكلام، مع أنّ الكلمة تُجمع على كلمات وكلام، فالكلام كثرة، فلو عبَّر بها مع إبراهيم لكان الأمر صعباً وشاقًّا على نفسه؛ لكن اختيار الكلمات يوحي بلطف الله بعباده في التكاليف، ومما يؤكّد ذلك أنّ آدم عليه السلام، لـمَّا أكل من الشجرة هو وزوجه، ووقعا في المعصية؛ تاب الله عليهما بكلمات، وهي تشير إلى اليسر في التنفيذ؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 37].

سرّ دخولِ حرفِ (الفاء) على ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾:

سرعةُ الامتثالِ مـن أسـبـابِ الإمامةِ

دلَّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ "على الفور في الامتثال،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/393.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/104.
(3) اوستين، نظرية أفعال الكلام، ص: 115.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/41.

وذلك من شدّة العزم"[1]، وهو كقولنا: دعوت فلانًا، فجاء، أي: على الفور، وهذا ما يجب أن يكون عليه المرء في عبادته، وفي السنّة أدلّة وافرة على أن يبادر المسلم إلى ما أمره الله تعالى مسرعًا، ولا يبطئ ما أمكنه ذلك، ومن أهمِّ هذه الأمور التعبديَّة الصلاة، كما ورد في الحديث: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»[2].

سرّ التعبيرِ بالتمامِ دونَ الكمالِ:

تمامُ مدحِ إبراهيمَ في استمرارِه في إتمامِ الكلمات دون فتورٍ أو انقطاع

الفرقُ بين التَّمامِ والكمالِ في الاستعمالِ القرآنيِّ هو في كونِ التَّمامِ يبقى متَّصلًا دون انقطاعٍ، بخلاف الكمال؛ فقد يتطرَّقُ إليه الانقطاع، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ﴾ [البقرة: 187]؛ فالصِّيام إلى اللَّيل لا يصحُّ بانقطاعٍ، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185]؛ فإنَّ إكمال عدَّةِ الصِّيام تكون بصوم يوم والانقطاع ثم المعاودة إلى حدِّ الاكتمال، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3]، يُفيدُ أنَّ إكمالَ شرائعِ الدِّين جاءت على فتراتٍ متقطِّعة، أمَّا النِّعمة فهي متَّصلة دون انقطاع، وفي الآيةِ عبَّر القرآنُ بالإتمام، وسرُّ ذلك بيانُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم ينقطع ولم يفتر عن أداء الكلماتِ، بل استمرَّ نشِطًا متواصلًا، وهنا مكمن المَدْحِ، ومربطُ الحمد.

توكيدُ الجملةِ يقوِّي مضمونَها:

التَّكليفُ بأمرٍ مستقبليٍّ عظيمٍ يحسُنُ معه التَّوكيد

معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ أي: "إنّي مصيِّرك للناس إمامًا، يؤتمُّ به، ويقتدى به"[3] ولتقوية هذا المضمون صدّر الجملة بعد فعل القول بإنّ، وأضاف الخبر للضمير مما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.
(2) متفق عليه، البخاري، حديث رقم: (527)، ومسلم، حديث رقم: (264).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/18.

يقوِّي تعريفه؛ فإنّ اللفظ إذا أضيف للضمير نزّل منزلة العلم في التعريف، ثمّ قدّم المتعلّق ﴿لِلنَّاسِ﴾ على المفعول الثاني ﴿إِمَامًا﴾ لإفادة التخصيص، وفيه مزيد توكيد؛ فقوَّى التوكيدُ مضمونَ الجملة فضلاً عن كونها جملة مستأنفة مستقلة، وحسُن التَّوكيدُ لأنَّه تعلَّق بأمرٍ مستقبليٍّ عظيم وهو إمامة النَّاسِ.

فلمّا كان هذا صنيعه فيما أمره الله؛ جوزي بعظيم الجزاء، وصيّره الله إمامًا يأتمُّ به الناس؛ "بسبب أنّه كان عاملاً بتلك الشريعة كان هذا تنبيهًا على أنّ من عمل بهذا الشرع؛ لا بدّ وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين"[1]، وفي ذلك عبرة بأنّ العمل بشريعته سبحانه وأداءَها على وجهها الأكمل، فيه بشارة للفوز في الدنيا، والترقِّي فيها.

فائدةُ الفَصْل بين الجمل:

إمامةُ النَّاس فضلٌ إلهيٌّ جاءَ عَقِبَ ابتلاءٍ ربَّانيٍّ

تركَ التعبيرُ القرآنيُّ عطفَ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ على ما قبله، فلم يربطها بالفاء عطفًا بأن يقول (فقال)، وسرّ ذلك "لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذِهِ الْإِمَامَةَ بِمَحْضِ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَاصْطِفَائِهِ، لَا بِسَبَبِ إِتْمَامِ الْكَلِمَاتِ؛ فَإِنَّ الْإِمَامَةَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الرِّسَالَةِ، وَهِيَ لَا تُنَالُ بِكَسْبِ الْكَاسِبِ"[2]، وهذا الفضلُ الإلهيُّ جاءَ بعد الابتلاءِ، فهو يُشعرُ بنوعِ أجرٍ وإثابةٍ، وكلُّ ذلك لا يكون إلَّا بالتَّوفيقِ والإفضالِ.

سِرُّ العدولِ عن الإخبارِ بالفعل الدَّالِّ على المستقبلِ إلى الاسمِ:

الإعلامُ بتحقُّقِ الجعلِ وكادةً ثابتةً، من الثَّناءِ العطِرِ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يتناول حالةً مستقبليَّة لم تحصل بعد، وقد استخدم النَّظم الصِّيغة الاسميَّة التي تدلّ على أمر ثابت متقرّر، وكان الأولى في قياسات التعبير البلاغي

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/230.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/374.

للقرآن الكريم أن يستخدم الصيغة الفعلية المضارعيَّة المقترنة بالسين للقريب من الاستقبال، أو (سوف) للبعيد منه، ومع ذلك عدل عنه إلى الصيغة الاسميَّة (جاعل)، وسرّ ذلك هو الدّلالة على أنّ الجعل إنّما هو بمنزلة الأمر المحقّق الحاصل الذي لا يشوبه شكٌّ أو ريب، "واسم الفاعل بمعنى: المضارع، وأوكد منه لدلالته على أنّه جاعل له البتَّةَ منْ غيرِ صارفٍ يلويهِ، ولا عاطفٍ يَثنيهِ"[1].

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ:

قدّم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ على المفعول الثاني ﴿إِمَامًا﴾، وفائدته: القصر؛ لأنّه لمّا كانت سجايا إبراهيم عليه السلام، وما كلّفه الله تعالى على الغاية من الكمال؛ فقد وصفه تعالى بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، فصار مستحقًّا للإمامة على الناس جميعِ النَّاس، وهو كذلك، فقد جعل "إمامته للناس كافّة على التأبيد، فإنّه لم يُبعث بعده نبيّ إلَّا من ذرِّيَّته"[2]؛ فلذلك أجمع أهل الأديان والملل جميعًا أنّ نبيَّها إبراهيم [3].

جميعُ من بُعث بعد إبراهيم عليه السلام هو من ذريّته

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿إِمَامًا﴾ دونَ (رسول):

جاء التَّعبير القرآني بلفظ ﴿إِمَامًا﴾ دون (رسول) للدلالة على أنّ رسالته تنفع الأمة المُرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم بطريق الاقتداء، وهذا واضح في تعدُّد رحلاته عليه السلام في أمصار كثيرة، حيث ذهب إلى العراق والشام والحجاز ومصر، وهو في كلّ رحلاته محلّ تبجيل وتكريم، ولا شك أنّ ذلك يبعث على الاقتداء، وإمامتُه أعمُّ من الرِّسالةِ، فليس كلُّ رسولٍ إمامًا للنَّاس.

إمامةُ إبراهيمَ عليه السلام أعمُّ من رسالةِ غَيْرِه

لطفُ العدولِ عن الطلبِ المباشرِ إلى الاستفهامِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ جملة خبريَّة من فعل القول في معنى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/310.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/206.

الأدبُ في الطلبِ، والـحـرصُ على الذُّريَّةِ من شِيَمِ العِظامِ

الطلب على تقدير: واجعل من ذرِّيَّتي، وهذا العدول من صيغة الأمر إلى الخبر مراعاةٌ للأدب مع الله تعالى؛ وفيه تلميحٌ لطيفٌ وحرصٌ رفيعٌ في أن يكون في ذُريَّته النُّبوّة؛ فسأل "على جهة الاستفهام عنهم، أي: ومن ذرِّيَّتي يا ربّ ماذا يكون؟"[1] وهو استفهام مشوب بالدّعاء والرّغبة في أن يحقِّق الله له ما يريد من جعل الإمامة في ذرِّيَّته عليهم السلام، وقد حقَّق الله تعالى رغبته ودعاءه في المؤمنين من ذرّيّته، وأُجيبَ ملتمَسُه، وجعل منهم الأئمة من لدن إسماعيل، وكذلك موسى وعيسى وغيرهما حتّى نبينا محمّد صلى الله عليه وآله أفضل الأنبياء والأئمة عليهم السلام جميعًا[2].

سرّ استعمالِ حرفِ الجرّ (مِن) في ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾:

فقه الدُّعاءِ قائمٌ على الإيمانِ السّليمِ، والعدلِ القويمِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ مقول القول شبه جملة من حرف الجرّ من والمجرور ذرِّيَّتي، ومجيء حرف الجرّ (من) للتبعيض كثيرٌ[3]، وهو الوارد في هذه الآية، ولوروده هنا غرض بيانيٌّ، فلم يقل: (وذريتي)؛ لأنّ في عدم وجوده في كلام إبراهيم طلبًا للمستحيل، لكنّه أراد "واجعل من ذرِّيَّتي أئمَّة يقتدى بهم في الخير"[4]؛ فجاء بمن الدالَّة على البعضيَّة.

لأنّ "حكمة الله من هذا العالم لم تَجْرِ بأن يكون جميعُ نسلِ أحدٍ ممن يصلحون لأن يقتدى بهم"[5]، فقوله المفترض: (وذرِّيَّتي) سؤال على نيَّة الحصر، وهو ليس من آداب الدعاء، وإنّما سأل الإمامة لذرِّيَّته لمن كان صالحًا لها بدلالة التبعيض لقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/206.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/45.
(3) المرادي، الجنى الداني: ص: 309.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/741.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/705.

نكتةُ إيثار لفظِ الظُّلمِ على غيرِه من الألفاظِ والعدولِ في أسلوب الجوابِ:

الظّلمُ مانعٌ من موانعِ الإمامةِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب للسؤال المفترَض من إبراهيم عليه السلام بجعل الأئمة من ذرّيّته؛ فهذا القول "جواب لما يتوهَّم في مسألته إيّاه أن يجعل من ذرّيّته أئمَّةً مثله، فأخبر أنّه فاعل ذلك، إلَّا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنّه غير مُصَيِّره كذلك"[1] فظاهر الجملة النفي إلَّا أنّ المعنى هو الاختيار، اختيار من هو أهل للإمامة والاقتداء من ذرِّيَّته عليه السلام؛ لأنّ "في ذريته من هو ظالم، فلا ينال الظالم عهده"[2].

وفي العبارة من البلاغة والإيجاز ما يناسب المقام، فإنّه لم يجبه إجابة مباشرة كما يقتضي السؤال، وإنّما أجاب "بِذِكْرِ الْمَانِعِ مِنْ مَنْصِبِ الْإِمَامَةِ مُطْلَقًا، وَهُوَ الظُّلْمُ؛ لِتَنْفِيرِ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الظُّلْمِ وَتَبْغِيضِهِ إِلَيْهِمْ؛ لِيَتَحَامَوْهُ، وَيُنَشِّئُوا أَوْلَادَهُمْ عَلَى كَرَاهَتِهِ"[3]، فإن فعلوا ذلك كانوا جديرين بالإمامة التي وعدها الله إياهم، وجاء بطريقة إثبات أحد الضدّين؛ "لأنّ حكم أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر على طريقة الإيجاز"[4].

اختيارُ لفظةِ ﴿عَهۡدِي﴾ في نفي الإمامةِ:

التعريضُ باليهودِ النَّاكثين للعهودِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ عهدي هنا فاعل، والمعنى: "أي: لا يصيب عهدي الظالمين، أي: لا يشملهم ... وسمّي وعد الله عهدًا؛ لأنّ الله لا يخلف وعده"[5] وفي التعبير بلفظة العهد اختيارٌ دقيق؛ ففيه تعريض باليهود، وهم المقصودون له؛ لأنّهم "الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة، وهو استقراء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/20.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 1/555.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/375.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.

للغيب أنّه سيأتي من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم"[1]، فضلاً عن أنّ الكلام لتوبيخ المشركين الظالمين، فعدل القرآن عن ذكر الصِّنف الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم عليه السلام وهي الإمامة؛ لأنّ القصد ذكر الصنف الآخر تعريضاً؛ لأنّ الذين يزعمون يومئذٍ أنّهم أولى الناس بإبراهيم، وهم أهل الكتاب ومشركو العرب، هم الذين يُحرمون من دعوته.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابتلاء والاختبار:

ذهب بعضهم إلى أنَّ الابتلاء بمعنى: الاختبار، مع أنّ النَّاظر في اللفظين يجدُ بينهما فرقاً دقيقاً، وإن اشتركا في المعنى العام؛ فلكلّ لفظٍ منهما ما يُميزه، فالابتلاء: التكليف في الأمر الشاقّ، ويكون في الخير والشرّ معاً، أمّا الاختبار؛ فمعناه: أيّ محكٍّ أو عمليةٍ يمكن استخدامها بهدف تحقيق حقائق مُعيَّنة، أو تحديد معايير الصواب، أو الدّقّة أو الصحّة سواء كان ذلك في قضية معروضة للدراسة أو المناقشة أو لغرضٍ مُعلَّق لم يتمّ التثبُّت منه، وعلى هذا؛ فالابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية، والاختبار: وقوع المُخبَر بحاله في ذلك، وهو أصل من أصول الابتلاء[2].

وعلى ذلك فالاختبار جزء من الابتلاء، ومن هنا آثر القرآن الكريم لفظ الابتلاء مع إبراهيم لتعدد أنواع الابتلاءات؛ فابتلاؤه في أبيه يسمَّى اختباراً، وفي ذبح ولده اختباراً، إلى غير ذلك من أنواع الاختبارات التي يُطلق على مجموعها الابتلاء.

الذّريّة والأبناء:

الأبناء جمع ابن، وهو كلّ ما وُلد ذكراً، ويطلق على كلّ ما ترتَّب على غيره بالسببيَّة أو التبعيَّة أو الملازمة أو المُشابهة، والابن في الاختصاص، ومداومة الصحبة، ولهذا يقال: (ابن الفلاة) لمن يداوم سلوكها، وقولنا: هو ابن فلان، يقتضي أنّه منسوبٌ إليه، ولهذا يقال: الناس بنو آدم؛ لأنّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل.

أمَّا الذُّرِّيَّة فهي نسل الرجل، وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقّة إمَّا من

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/573.
(2) الزهراني، التفسير الموضوعي: 1/139.

الذَّرِّ، وهو صغار النمل، أو من الذَّرِّ مصدراً بمعنى: التفريق، وإمّا من الذري أو الذرو، وهو مصدر ذرتُ الريح؛ إذا اقتربت من وجه الأرض، أو من الذرء، وهو الخلق[1].

ومن خلال النظر في هذه الاشتقاقات تجد أنّ لفظ الذرِّيَّة أعمّ من لفظ الأبناء، حيث يطلق لفظ الذرِّيَّة على الأولاد والذكور والإناث؛ بخلاف الأبناء، فمنظور فيهم إلى الاختصاص بالنسب، ومداومة الصحبة، والإطلاق على الذَّكر فقط.

لذلك كان اختيار التعبير بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ لإفادة العموم في كلٍّ من ينتسب إليه من طريق الذكور أو الإناث، قريبة كانت أو بعيدة، وأيضاً لتشير إلى نبوَّته ﷺ، فهو من ذرِّيَّته.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 282-281.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»